يده من وراثة والده . وفي ١٦ ايلول من السنة ١٦٧٧ اقبل في مدينة إكس من ايدي رئيس اساقفتها الكردينال غريمالدي الدرجة الاسقفيَّة في حفلة نهاية في الرونق حضرها كثيرون من اعيان الدولة ووجوه الاكليروس واعرب هو فيها عن تواضعه واستعداده لبذل النفس والنفيس في خدمة الكنيسة . وكان عمره وقتئذٍ بالنَّاً السنة الثانية والخمسين

فلم يبقَ لهُ في وطنه ما يعيقهُ عن السفر إلَّا انتظارهُ لتجهيز السفينة التي كان تقرَّر ان يركبها والتي تأخَّرت الى ربيع السنة ١٦٧٨ وكأنَّ تأخُّرهُ هذا وقع بعناية خاصَّة من الله ليحضر وفاة شقيقته زوجة المسيو دي لاشبر . فكان وجوده في فرنسة مرهماً لأوجاع قرينها . ومع اسفه الشديد على فقدها ازيد حبه لها لعي حزنهُ ليعزّي زوجها ويلهمهُ صبراً جميلاً على موتها

(التتمَّة لعدد آخر)

المئة الرابعة لوفاة فاسكو دي غاما

١٥٢٤ — ١٩٢٤

للاب جبرائيل لوقاس اليسوعي

ان التاريخ قد نظم منذ القرن السادس عشر ثلاثي فاسكو دي غاما في عداد كبار المكتشفين مع كريستوف كولمبوس وماجلان (اطلب المشرق ١٩ [١٩٢١] : ٣١٦ — ٣١٨) فهم الثلثة النوابغ الذين بفضلهم انفتحت طرق البحار ومهَّدوا سبل المعاملات بين اقاصي العالم واوربَّة فاتى عملهم بتفاعيل ذات شأن لم يُفنها الزمان.

فلمَّا توفَّق دي غاما الى فتح طريق جديدة الى الهند مارَّة جنوبي افريقية دائرة حولها خوَّل لوطنه كنوزاً ثمينة ربحها بالتجارة مع اقاصي الشرق فبلغ خصباً ورقياً لم يبلغهما غيره . وفي الوقت ذاته ضرب ضربةً أليمة على تجارة البنادقة ودولة المماليك في

فاسكو دي غاما

منقول عن صورته الاصلية التي نشرتها مجلة الجرنال الجغرافي الانكليزية

مصر فكان المصريون يقطعون البحر الاحمر بالسفن العربيّة ويتنقلون منهُ الى الهند فينقلون ثروتها الى بلادهم فيبتاعها البنادقة باسعار متهاودة ويأتون بها الى اوربّة فيبيعونها بأثمان غالية رابحين . فوجود رأس الرجاء الصالح كسر في عضد المتاجرين بالبحر الاحمر ولم يزل هذا الممرّ كاسدًا الى ان فُتحت ترعة السويس سنة ١٨٦٩ فرجعت الحركة الى الهند على طريق مصر

والمجد في هذا الانقلاب يعود لفاسكو دي غاما لمروره قبل سواه حول افريقية الجنوبيّة . ولذلك ارادت دولة البرتغال ان تقيم الحفلات الباهرة في ٢٩ كانون الاوّل من السنة السابقة ١٩٢٤ كما مجّدت شاعرها كاموئنس (Luiz Camoens) في السنة ذاتها وهو الذي نظم في أنشودته الشهيرة المعروفة باللوسياد (Lusiades) مفاخر فاسكو دي غاما . ففي ذلك اليوم احتشدت جماهير الشعب عند مشهدهِ الذي اقامهُ ذكرًا لهُ الملك مانويل الاوّل في ليشبونة . وجرى هناك مهرجان عظيم اطرأوا فيهِ مآثر دي غاما ثمَّ دشّنوا اثرًا آخر على طراز هندسي بديع وضعوا حجرهُ الاوّل عند المرفأ الذي ركب منهُ ذاك المكتشف سفينتهُ التي قطع بها لاوّل مرّة طريق رأس الرجاء الصالح

وقد قسمنا هذه النبذة قسمين نرى في اوّلها قصة اكتشاف طريق الهند ونصف في الثاني اخلاق المكتشف والفوائد التي نجمت عن اكتشافهِ

١ اكتشاف طريق الهند بحرًا

لا تُعرف تمامًا سنة مولد فاسكو دي غاما قيل انهُ ولد سنة ١٤٦٩ في مدينة بحريّة تدعى سينس وقيل في سنة اخرى وكانت اسرتهُ من اشراف بلاد البرتغال . فنشأ شابًا في خدمة وطنهِ بصفة ضابط بحري في سواحل افريقية الشماليّة . وكانت البرتغال في ذلك العهد تجاري اسبانية في السيادة على البحر . فامتاز فاسكو بحذقهِ في السياسة البحريّة

وكان وقتئذٍ يملك على البرتغال ملك واسع المدارك يوحنا الثاني يطلب لوطنهِ املاكًا جديدة ليزيدها ثروةً ومجدًا . وكان يرى بازاء دولتهِ ممالك افريقية والبحار تكتنفها شرقًا وغربًا فيتساءل عمَّا اذا يمكن ان تبلغ سفنهُ الى اقصى جنوبها فتدور

حولها فتصعد حتى تبلغ الهند. وكان لا يُعرف قبل ذلك طريق آخر الى الهند بحرًا الّا البحر الاحمر الذي منهُ كانت تسير سفن المصريين والاتراك الى جهات الهند فتبادلها محصولات بلادها وتستجلب باثمان بخسة اقاويه الهند وابازيرها فتبيعها البنادقة في الاسكندرية. ولم يكن هذا الفكر خطَرَ لاوّل مرّة على بال الملك بل كان سبقهُ اليهِ الملك هنريكس المعروف بالبحّار سنة ١٤٦٠. ثمّ عاد خلفهُ الفنس الخامس وعرضهُ على اهل دولتهِ سنة ١٤٨١. ثمّ اراد يوحنّا الثاني ان يخرجهُ الى حيّز العمل فجهّز سنة ١٤٨٧ سفناً عهد تدبيرها الى بحّار شهير يُدعى برتلمي دياز ليتحقّق الامر فأبحر مستكشفاً سنة ١٤٨٧ حتى بلغ اقصى جنوب افريقية الى الرأس الذي استبشروا بهِ فدعوهُ برأس الرجاء الصالح

وفي السنة ذاتها دخل بورتغاليّان مصر وسارا برًّا منها الى جهات الصومال فأبحر احدهما المدعو بدرو دي كوڤلهام (Pedro de Covilham) الى الهند ونزل في ملبار ثمّ ركب البحر منها الى سواحل افريقية الشرقية فبلغ ناحية سُفالة الواقعة على الدرجة ٢٠ من العرض الجنوبي فتحقّق من اهلها موقع جزيرة مدغسكار والبلاد الساحليّة شرقي افريقية فكتب في ذلك تقريرًا واسماً للملك يوحنّا الثاني يؤكّد لهُ إمكان استدارة افريقية بحرًا من غربها الى شرقها بحيث تستطيع المراكب اذا واصلت سيرها قرب السواحل ان تصعد الى جزيرة مدغسكار والى نواحي سفالة فتبحر منها الى الاوقيانوس الهندي ثمّ الى الهند

على ان هذه المعلومات بقيت حبرًا على ورق في زمن الملك يوحنا الثاني لمرض اصابهُ فشغلهُ عن اثباتها الى ان قام خلفهُ مانويل الملقّب بالسعيد فنالهُ الفخر بتحقيقها والانتفاع بها

فاسرع هذا الملك وامر بتجهيز سُفن متينة وخفيفة معاً جامعة لكل اسباب الراحة والمناء تقوى على الاسفار البعيدة. فاستحضَرها بُناتها كما شاء. وتألّف منها اسطول صغير ذو خمس مراكب كان اهمّها ثلثاً على اسماء رؤساء الملائكة سان غبريال وسان ميكائيل وسان رافائيل. فأقام لكل منها ربّاناً وعيّن فاسكو دي غاما رئيساً لتلك البعثة فنشر رايتهُ على السفينة سان غبريال وهي اكبرها. واتّخذ لهُ كربّان بدرو دي أنبكار الذي كان رافق برتلمي دياز الى رأس الرجاء الصالح. امّا

دياز فركب ايضاً سفينةً برفقة فاسكو دي غاما إلّا انهُ كان موجّهاً الى ناحية اخرى الى ساحل الذهب للاستكشاف على مناجمها الثمينة

كان فاسكو دي غاما يوم سفره في عزّ كهولتهِ دون الثلثين من عمرهِ وكان اقترن بالزواج مع احدى سيّدات بلاط الملك. وكان هو شديد البنية رَبْعة القامة ذو هيبة تبدو على وجههِ علائم العزم والإقدام كأنّهُ خُلق للرئاسة والتدبير وهو مع ذلك عسر القياد سريع الغضب. وكان فاسكو رجلاً متديّناً دعا قومهُ ليلة سفرهِ الى زيارة معبد قديم للعذراء مريم يُعرَف بسيّدة بيلم (N. D. de Belem) ليجعل سفرهم تحت شفاعة سيّدة البحار. وكان عدد المسافرين من رؤساء ومرؤوسين ١٦٠ رجلاً

وكان سفر الاسطول في ٨ تموز ١٤٩٧ يرأى جماهير الشعوب وهتافهم فساروا جنوباً تدفعهم ريح موافقة الّا انّ الانواء البحريّة وتقلّبات الجوّ لم تسمح لهم بالبلوغ الى رأس الرجاء الصالح الّا بعد اربعة اشهر بنيّف فبلغوهُ في ١٣ تشرين الثاني وقطعوهُ في ظهر ذلك اليوم لاوّل مرّة فنال الرُكّاب لذلك فرحٌ عظيم فعُدَّ بجملة الايّام المشهودة والمواسم المعدودة

بيد انّ الاسابيع التالية كانت صعبة شديدة اقتضى ارتمالبرن اوّلاً ١٣ يوماً في جرنٍ هناك يُدعى «سان براز» نصبوا عند ساحلهِ صليباً كبيراً وبعد ان خذوا فيهِ نصيباً من الراحة واصلحوا امورهم واصلوا السير حتى بلغوا يوم عيد الميلاد ١٤٩٧ المدينة التي دعوها ناتال باسم العيد (Natalis Domini) فرفعوا عليها راية ملك بورتغال. ثم بارحوها صاعدين الى الشمال وحاذين سواحل افريقية الشرقية وبلاد كفريرية فكانوا يبالمون اهلها ويبادلونهم محصولات البورتغال

وقد لقي دي غاما في سيرهِ هذا عناء كبيراً وذلك اوّلاً بما لقوهُ من انواء البحر الشديدة ثمّ من مجاريهِ الماكسة وأُصيب النوتيّون بداء فقر الدم (scorbut) فأضربوا عن العمل فاضطرّ دي غاما الى اكراههم على الشغل فرسا حيناً عند مصبّ نهر زمبيزة ووجد في اهل تلك البلاد نفوراً اذ ارادوا ان يمنعوهم من التموين من الماء الشروب فحاربهم واقام هناك مخفراً ومستودعاً تجاريًا

ثمّ وصل دي غاما بسفنهِ الى بلاد موزمبيك في ١٠ آذار فرسا عند مدينة ساحليّة تُدعى سُفالة يذكرها ياقوت في معجم البلدان كآخر ما يُعرف من ارض الزنج ويذكر

ذهبها الشهير. ولم يجد فيها البرتغاليون ما أمّلوهُ من حسن المعاملة وحاول ملكها ان يتدبر بهم ويضلّلهم في طريقهم الى الهند فاخذوا منهُ حذرهم وقاومزهُ

ثم وصلوا الى مُنبَسَه في ٧ نيسان فرحّب بهم اهلها واتوهم بثمارها. فانتعش الرضى بنسيمها العليل وجودة هوائها. وتحقّق فاسكو هناك انهُ لم يضلّ عن طريقهِ. وسافر من ممبسة الى مَلَنْدي الواقعة على الدرجة ٣ من العرض الجنوبي فبلغها في ١٥ نيسان في يوم عيد الفصح فاكرم ملكُها مثواهم وقدّم لهم ما يحتاجونهُ لسفرهم وعيّن لهم دليلاً عارفاً بطرق البحر يصفهُ البرتغاليون كهندي من كَرَات ويدعونهُ Malemo Cana (او Canake وهو تصحيف اسم «المعلّم» اما «كانا» فهي لفظة هنديّة معناها «المنجّم» لاستدلالهِ على طريقهِ بمراقبة النجوم. واليوم قد تحقق المستر فرّان (G. Ferrand) انّ الدليل المذكور كان مسلماً من اهل عمان يدعى احمد بن ماجد ذكرهُ قطب الدين النهروالي في كتابهِ البرق اليماني الذي انتقدهُ العلّامة سلفستر دي ساسي (١

وقد اكتشف المستر فرّان الكتاب النفيس الذي ألّفهُ دليل فاسكو دي غاما فنشرهُ مؤخرًا وباشر بترجمتهِ الى الافرنسية وعنوانهُ كتاب الفوائد في اصول علم البحر والقواعد. وكان كاتبهُ ابن ماجد يلقّب بعلم البحر لخبرتهِ الواسعة في قطع البحار. كان ورث علمهُ عن ابيهِ وجدّهِ وقد عرفهُ الاتراك قبل البرتغاليين وقد ذكرهُ البحّار التركي سيدي علي في مذكراتهِ البحريّة التي وردت في المجموع المعروف بالمحيط المؤلّف سنة ١٥٥٤ : ومما يقولهُ هناك عن ابن ماجد انهُ كان مولودًا في جُلفار التي سماها ذكرها اصحاب الخوارط وقد ذكرها صاحب تاج العروس فقال انها في نواحي عمان. وهي في الواقع فرضةٌ من ساحل عُمان الغربي عند مضيق بحر العجم وهي اوّل ما يلاقاهُ المسافر عند اجتيازهِ من بحر عمان الى بحر العجم واسمها في خوارط الانكليز رأس الخيمة وهي بلدة يبلغ عدد اهلها نحو الف نسمة (٢ وكان ابن ماجد كتب ادلّةً مختلفة بينها دليلان في مكتبة باريس العموميّة برقم ٢٢٩٢ و٢٥٥٩ وصفهما المستر فرّان لاسيما الثاني منهما (ع ٢٥٥٩) الذي اهتمّ بنشرهِ وقد قال عنهُ

(١ اطلب Notices et Extraits, IV, 179, p. 412 sqq

(٢ اطلب SPRENGER: die alte Geographie Arabiens, *Bonne.* 1875 = A. Hand-book of Arabia, I, 342

انهُ من ابدع التآليف ضمَّنهُ المعلومات الوافية عن كل جهات بحر الهند وطرقهِ وعن المواسم والرياح المختلفة وعن المرافئ التي يحتاجها الركَّاب مع بيان عَرضها وذلك بكل تدقيق يُنتظر من كاتبي ذلك العهد (١)

فهذا هو الدليل الذي اصابهُ فاسكو دي غاما ففحصهُ فحصاً مدقَّقاً وألقى عليهِ أسئلة عديدة وطلب منهُ الخارطة التي كان يستدلُّ بها لاسفاره الى الهند والادوات التي كان يستعملها لمعرفة علوّ النجوم. فبعد الاحتفاء بالبحث تأكَّد انهُ وجد بابن ماجد خيرَ دليل للبلوغ الى أربهِ وأسرع الى الاستفادة من خبرتهِ فسيَّر اسطولهُ الى سواحل الهند وذلك في ٢٤ نيسان ١٤٩٧ (٢). وفي ٢٧ أيار من السنة بلغ قالقوط من سواحل ملبار في عرض الدرجة ١١ الشمالية. فكان وصولهم اليها بعد ٢٦ يوماً من ملنـدي واحد عشر شهراً منذ سفرهم من لشبونة

وكانت قالقوط وقتئذٍ مدينة كبيرة رائجة الاسواق تتقاطر اليها كل محصولات الهند الثمينة كالابازير والافاويه والاعطار واللآلئ والحجارة الثمينة. وكانت مراكب التجار تتزاحم في مرافئها فربَّما بلغت من ٥٠٠ الى ٧٠٠ مركب فلقي البرتغاليون تجَّارها قصدوها من انحاء شتى بينهم البلجكيُّون (من بروج) والبنادقة. وكان المالك على قالقوط رجل من الهنود يدعونهُ سامودري او سامودي راجا

فثبت لدى فاسكو دي غاما انهُ اصاب الهدف. وكان وصولهُ الى قالقوط مبعثاً لاندهاش العرب فاظهروا للبرتغاليين استياءهم وسعوا الى إثارة ملـك الهند عليهم فجاهروهم بالعداوة واضطرَّ فاسكو الى استعمال القوَّة وضرب المدينة بالسلاح ثم تركوا المدينة فلم يقووا على ابتياع مـا شاؤوا من اسواقها الَّا بعض طرودة من الابازير وقليلاً من الحجارة الكريمة واللآلئ فاكتفوا بذلك ولاسيما انَّ سفنهم كانت صغيرة ولم تكن غايتهم المتابرة بل الاستطلاع فغازوا ناقص مرغوبهم

ثمَّ عاد فاسكو دي غاما أدراجهُ مسرعاً الى لشبونة فبلغها في اواخر آب ١٤٩٩

---

(١) وفي مكتبة المجمع العلمي في دمشق نسخة اخرى شبيهة بنسخة باريس الثانية (ع ٢٢٩٢) ذُكرت في اعمال المجمع (عدد شباط ١٩٢٢). وقد وُجدت نسخة ثانية ايضاً في جدَّة كنسخة العدد ٢٥٥٩ الَّا انها ناقصة

(٢) البلب Barros: Da Asia, Decade I, Livre IV, Ch. VI, pp. 319-320 ed. 1779

بعد ان قضى اشهرًا في البحر لسكون الريح وفقد فوق المئة من نوتيّته بداء فقر الدم. فحدّث عن فرح الملك مانويل واهل البرتغال لاكتشاف هذه الطريقة الجديدة الى الهند ولا حرج. وما لبث في السنة المقبلة ان جهّز اسطولًا ثانياً مركّباً من ١٣ مركباً جعلهُ تحت قيادة كَبْرال فأبحر الى الهند في ٩ آذار ١٥٠٠ ثمّ شفعهُ باسطول ثانٍ خرج من لشبونة في ٥ آذار ١٥٠١. وفي السنة ١٥٠٢ استدعى ثانيةً فاسكو دي غاما وارسلهُ الى الهند ليقطع الطريق بين مصر والهند فيطارد سفنَ المصريين ويمنعها من الخروج عن البحر الاحمر وسفنَ الهنود ليصرفها عن الدخول اليهِ. فكتب سفير البنادقة الى رئيس جمهوريّتهِ يُعلن لهُ بان هذه البعثة هي بمثابة حرب ضد الاتراك

فترى ما بلغهُ مارك البرتغال في مدّة خمس سنين فقط فانّهم ماطلبوا اولًا سوى اكتشاف طريق الى الهند وحاولوا بعد اكتشافهِ المتاجرة مع غيرهم من التجّار. وفي البعثة الاخيرة قصدوا الاحتكار على محصولات الهند والغاء كل مزاحمة في متاجرتها ليتفردوا في الانتفاع من تلك الكنوز وبيعها للاقطار الاوربية. ولذلك ترى الملك مانويل في رسالتهِ الى وكيل البندقيّة في بلاط اسبانية يازحهُ بقولهِ انّ البرتغاليين وقفوا على مواطنيهِ الاسفار الى مصر فيمكنهم ان يبتاعوا محصولات الشرق منهم بلا عناء. فعلم البنادقة انّ تجارة الهند تحوّلت الى سواهم

والحقّ يقال انّ طريق الهند الجديدة زعزعت اركان الجمهوريّة البندقيّة حيث أفقدتها معظم ثروتها. ولم يسعها ان تجاري دولة البرتغال التي تغلبها قوّةً ونفوذًا. وكانت هي متوسّطة بين مصر والاقطار الاوربيّة فيبتاع تجّارها محصولات الهند ضعف قيمتها من ايدي العرب في جدّة او في عَدَن او في مصر ويزدون لديوان الاسكندريّة ضرائب جديدة عليها فيبيعونها اخيرًا باثمان فاحشة. مثال ذلك ان رطل الزنجبيل كان يُباع بقسطوط باربعة عشر فرنكاً. وكان العرب يبيعونهُ في الاسكندريّة بثمانية وثلثين فرنكاً ونصف فاذا ابتاعهُ البنادقة طلبوا فيهِ نحو مئة فرنك

فلمّا صار البرتغاليّون يجلبون تلك الافاويه والعطور رأساً من الهند امكنهم بيعها في اسواقهم باثمان متهاودة. وعلى عكس ذلك اخذت سلع الهند تقلّ في الاسكندريّة وفي بيروت وترتفع اسعارها لقلّتها فلا تنقل سفن البنادقة سوى ربع ما

كانوا يتموّنونهُ سابقاً فيها من بضاعة الهند مع زيادة فاحشة في الاسعار . فما لبثت ان كسدت اسواق البندقيّة وصار تجّار الالمان وغيرهم يقصدون اسواق البرتغال عادلين عن متاجرة البندقية

وكان القائد كبرال قد عاد بعد بعثتهِ وسفنهُ موسقةٌ بضروب محصولات الهند . ومثلهُ فاسكو دي غاما بعد رحلتهِ الثانية فانهما موّنا بلادهما بنحو ثلثين الف رطل من الافاويه والعطريّات وخمسة آلاف طنّ من البهار وبكميّات وافرة من القرفة والجوز الهندي والزنجبيل ومن الحجارة الكريمة والدراري الثمينة . وصارت تلك البضائع تباع بنصف ثمنها ويربح البرتغاليّون بيعها ارباحاً وافرة

وكانت رحلة فاسكو دي غاما الثانية الى الهند رحلة ظافر لم يشُبها شيء من المكدّرات السابقة . وكان في طريقهِ يقرّر سيادة البرتغال على البلاد التي تعرّضَ لهُ امرازها في بعثتهِ الاولى كسفالة وموزمبيك ورفع العلم البرتغالي على انحائها واحرق في طريقهِ سفينةً مصريّة انتقاماً لسوء معاملتهم لهُ في قالقوط . ثمّ صار الى هذه المدينة ليطالب بدم بعض اصحابهِ الذين اغتالهم ملكها زامورين فضربها بالمدافع واحرق مرفأها واضطرّ ملكها الى طلب التنزّل عن عرشهِ وحال دون السفن الاجنبيّة عن دخولها ومتاجرتها فانتشر الخبر في انحاء الهند فهلع اربابها وقبلوا سيادة البرتغاليين عليهم وأدّوا لهم جزيةً . ثمّ سار الى كوشين وكان ملكها تريومپارا ضرب عهداً مع كبرال فجدّد المعاهدة ووضع الشروط الموافقة للمتاجرة بينهُ وبين دولة البرتغال . ومنذ ذلك الحين اصبحت المعاملات التجارية بين الهنود والبرتغاليين نظاميةً سلميةً وترك الاسطول تحت قيادة نائبهِ فيسنته سودره وعاد الى ليشبونة حيث اعلم الملك مانويل بان سيادة البرتغال على الهند اصبحت ثابتةً راهنة لا ينازعها عدوّ

ولم يَعُد فاسكو دي غاما الى الهند بعد ذلك بل بقي لا يتعاطى امور الدولة طول ايّام الملك مانويل . ولمّا قام خلفهُ يوحنّا الثالث اراد ان يُسند اليهِ امارة البحر في الهند ويجعلهُ نائبهُ في الشرق فانتدبهُ لهذه المهمّة سنة ١٥٢٤ فصار لهُ حينما ذهب استقبال جدير بمقامهِ ولمّا وصل الى مدينة غوا استحسن موقعها وعلم ما ستبلغهُ من المجد ثمّ ابحر الى مدينة كوشين فما كاد يطأها حتى أُصيب بداء عياء أودى بحياتهِ فدُفن هناك مكرّماً وأُقيم لهُ مشهد فخم في مدينة ترافنكور ثمّ نُقلت رُفاتهُ بعد

سنوات الى لشبونة فاستقبلها الملك واعيان الدولة وجمهور الشعب بما تستحق من تظاهرات التجلّة والاكرام وقُبر في معبد بجوار قصره الذي كان يسكنهُ قبل سفرته الاخيرة

وكان الملك مانويل قبلهُ قد منحهُ لقب « دون » الشرفيّ وخوّلهُ دوقية فيغيراس مع امتيازات شتى تمتّع بها زمناً واورثها بنيهِ من بعدهِ

٢ صفات الرجل وثمار اعمالهِ

قد سبق ان فاسكو دي غاما كان رجلاً مقداماً ذا همّة قعساء لا تثبطهُ الاخطار ولا تثني عزيمتهُ الصاعب وذلك ما مكّنهُ من تنفيذ مقاصدهِ . وكان بعيد النظر للامور يتقصّى في البحث عن سوابقها ولواحقها واذا باشرها يلازمها ويدفع مرؤوسيهِ على عملها ريثما يبلغ الى تحقيقها . ومما يُخبر عنهُ في رحلتهِ الثالثة انهُ حدثت لهم زلزلة ارتجفت لهُ فرائص جميع رفقتهِ . فالتفت اليهم قائلاً ألا ترون انّ البحر نفسهُ يضطرب هلعاً امامنا فكانت تلك الكلمة اشبه بما فاه بهِ يوليوس قيصر في بعض اسفارهِ البحريّة اذ كادت سفينتهُ تغرق فصرخ : لا بأس عليكَ فانكَ تنقلين قيصر »

ومن صفات دي غاما الحسنة حبُّهُ الخالص لوطنهِ كان يتفانى في رفع شأنهِ وتعزيزهِ . وان تصدّى لهُ مُعادٍ في سبيلهِ تنمّر غيظاً وربّما تجاوز الحدود في مقاومتهِ وتذليلهِ . وكان في ساعة غضبهِ يكاد ان يلتهم المحرك انيظهِ . وكان مع ذلك في حياتهِ الاجتماعيّة دمث الاخلاق لين العريكة ذا هيبة ووقار

وما لا شكّ فيهِ انّ الخدمة التي قدّمها لوطنهِ بفتح طريق الهند خدمة لا تُقدّر فانها جعلت للبرتغال مدّة سنين عديدة رتبة رفيعة بين الدول الاوربيّة . بل كانت خدمتهُ جمّة عائدة الى منافع اوربّة جمعاء والى عموم الدنيا اذا امتزجت مذ ذاك الحين الدول الاوربيّة بالشرق الاقصى ونال كلّ قسم منها خيرات الآخر . فما تمتعت ثروة اوربّة من محصولات الهند واليابان والصين . واكتسب الشرق شيئاً من تمدّن الغرب ورقيهِ في طلبيّ الدنيا والدين

وبين مجاسن صفات فاسكو دي غاما روحهُ الدينيّة فانهُ كما رأيت التجأ الى معونة العذراء قبل سفرهِ لفتح طريق الهند . وكانت غايتهُ بسلوك الطريق الجديدة

الى الهند ان يفتح للتبشير بالدين النصراني باباً واسعاً وللمرسلين وسائل سهلة لبشاتهم الرسولية متمثلاً في ذلك بمثل كولمبوس الذي بتفتيشه عن عالم جديد كان يقصد انتشار دين المسيح بين غير المؤمنين

والحق يقال ان الرسالات الكاثوليكية اصابت بعد زمن قليل نجاحاً عظيماً فقام المرسلون من الرهبان الدومنيكان والفرنسيسيين وركبوا سُفُن البرتغال واسبانية ودخلوا بين شعوب متكلمة في ظلال الموت بعبادتها للاوثان وسجودها لأخس المخلوقات وجعلوا يدعونهم الى الدين الحق

وقد زاد نور النصرانية سطوعاً بعد قليل في تلك البلاد لما انشأ اغناطيوس دي لويولا رهبانيته وبث ابناءه في الشرق الاقصى . وكان الذي دعاه الى هذا العمل المبرور هو يوحنا الثالث ملك البرتغال الذي كان انتدب قبلاً فاسكو دي غاما الى امارة الهند فاتاه القديس فرنسيس كسفاريوس وركب سفنه الى الهند في ٧ نيسان ١٥٤١ ونشر بتبشيره واعماله وعجائبه اسم السيد المسيح في انحاء الهند واليابان ودل اخوته على طريق الصين وصبغ بماء المعمودية مليوناً من البشر وذلك بمدة عشر سنوات فقط . ثم [illegible] ومدة مئتي سنة اخصبوا تلك الاراضي القاحلة بعرق جبينهم وبهراق دمائهم [illegible] الكنيسة الله شعوباً لا يُحصى عددها جدد كثيرون منهم فضائل المسيحيين الاولين وثبتوا في سبيل ايمانهم الى آخر نفس من حياتهم بل صبروا على كل العذابات وفضلوا الاستشهاد على جحود دينهم

وكل ذلك كان سببه فتح طريق الهند بحراً ريثما تُفتح ترعة السويس فتقصر الطريق وتنمو الرسالات الكاثوليكية النمو العجيب الذي نشاهده في ايامنا . والمبشرون هم الذين لا يطلبون من عملهم لا ربحاً ولا فائدة زمنية كالدول الاوربية بل يهتمون في خلاص اخوتهم من بني البشر لينقذوهم من رق عبودية ابليس وينفتحوا لهم ابواب الملكوت بمعرفة خالقهم الذي تأنس حباً بنفوسهم التي افتداها بدمه الثمين